

مَنْ هُوَ الرَّاسِخُ فِي العِلْمِ؟

كَتَبَهُ

أبو معاذ رائد آل طاهر

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

مَنْ هُوَ الرَّاسِخُ فِي العِلْمِ؟

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدِّين؛ أما بعد:

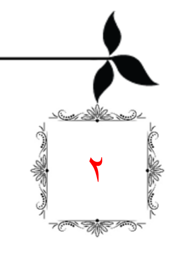
فهذه مشاركة أحببتُ فيها بيان صفة الراسخ في العلم من أقوال أهل العلم لئلا يلتبس الأمر على بعض إخواننا في إطلاق وصف (الرسوخ في العلم) نفياً وإثباتاً.

أولاً:

قال تعالى: ((هوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ: آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ. رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ)).

وقال سبحانه: ((لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا)).





قال الحافظ القرطبي رحمه الله في تفسيره (٤/ ١٩): ((والرسوخ: الثبوت في الشيء، وكل ثابت راسخ، وأصله في الأجرام أن يرسخ الجبل والشجر في الأرض؛ قال الشاعر:

لقد رسخت في الصدر مني مودة ... لليلى أبت آياتها أن تغيرا)).

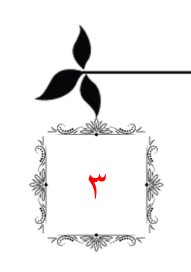
ثانياً:

أخرج الطبري في تفسيره والطبراني في معجمه وغيرهما عن أبي الدرداء رضي الله عنه: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئِل عن الرَّاسخين في العلم؟ فقال: ((مَنْ برَّت يمينُه، وصدق لسانُه، واستقامَ قلبُه، ومن عفَّ بطنُه وفرجُه، فذلك مِنَ الرَّاسخين في العلم)).

والحديث في سنده عبد الله بن يزيد بن آدم الدمشقي، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله كما في [لسان الميزان ٥/ ٤٠]: ((قال أحمد: أحاديثه موضوعة، وقال الجُوزْجَاني: أحاديثه منكرة)).

ثالثاً:

أخرج ابن أبي شيبة في مصنفه وغيره بسنده عن مسروق رحمه الله أنه: كَانَ يَأْخُذُ بِقَوْلِ عَبْدِالله بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه فِي أَخَوَاتٍ لأُمٍّ وَأَبٍ، وَإِخْوَةٍ وَأَخَوَاتٍ لأَبٍ، يَجْعَلُ مَا بَقِيَ عَلَى الثُّلُثَيْنِ لِلذِّكُور دُونَ الإِنَاثِ، فَخَرَجَ خَرْجَةً إِلَى




الْمَدِينَةِ، قَالَ: فَجَاءَ وَهُوَ يَرَى أَنْ يُشَرِّكَ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ لَهُ عَلْقَمَةُ: مَا رَدَّكَ عَنْ قَوْلِ عَبْدِ اللهِ؟ أَلَقِيتَ أَحَدًا هُوَ أَثْبَتُ فِي نَفْسِكَ مِنْهُ؟ فَقَالَ مَسْرُوق: "لاَ، وَلَكِنْ لَقِيتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فَوَجَدْتُه مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ".

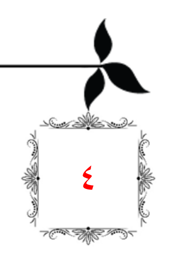
وقال ابن كثير في تفسيره: ((وقد روى ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله")).

رابعاً:

وهذه بعض النقول عن أهل العلم يتبين من خلالها من هو الراسخ في العلم:

١- قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره (٥/ ٢٢٣): ((يَعْنِي بِالرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ: الْعُلَمَاءَ الَّذِينَ قَدْ أَتْقَنُوا عِلْمَهُمْ وَوَعَوْهُ فَحَفِظُوهُ حِفْظًا لاَ يَدْخُلُهُمْ فِي مَعْرِفَتِهِمْ وَعِلْمِهِمْ بِمَا عَلِمُوهُ شَكٌّ وَلاَ لَبْسٌ، وَأَصْلُ ذَلِكَ: مِنْ رُسُوخِ الشَّيْءِ فِي الشَّيْءِ؛ وَهُوَ ثُبُوتُهُ وَوُلُوجُهُ فِيهِ، يُقَالُ مِنْهُ: رَسَخَ الإِيمَانُ فِي قَلْبِ فُلاَنٍ فَهُوَ يَرْسُخُ رَسْخًا وَرُسُوخًا)).

٢- وقال الإمام البغوي رحمه الله في تفسيره (٢/ ١١): ((وسُئل مالك بن أنس رضي الله عنه عن الراسخين في العلم؟ قال: "العالمُ العاملُ بما عَلِمَ المتبعُ له"، وقيل: "الراسخ في العلم من وجد في علمه أربعة أشياء: التقوى بينه وبين

الله، والتواضع بينه وبين الخلق، والزهد بينه وبين الدنيا، والمجاهدة بينه وبين نفسه)).

٣- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في المجموع (١٦/ ٤١٧): ((فَمَنْ اتَّبعَ الْمُتَشَابِهَ ابْتَغَى الْفِتْنَةَ وَابْتَغى تَأْوِيلَهُ، وَالْأَوَّلُ قَصْدُهُمْ فِيهِ فَاسِدٌ، وَالثَّانِي لَيْسُوا مِنْ أَهْلِهِ، بَلْ يَتكَلَّمُونَ فِي تَأْوِيلِهِ بِمَا يُفْسِدُ مَعْنَاهُ؛ إِذْ كَانُوا لَيْسُوا مِنْ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ.

وَإِنَّمَا الرَّاسِخُ فِي الْعِلْمِ الَّذِي رَسَخَ فِي الْعِلْمِ بِمَعْنَى الْمُحْكَمِ، وَصَارَ ثَابِتًا فِيهِ لَا يَشُكُّ وَلَا يَرْتَابُ فِيهِ بِمَا يُعَارِضُهُ مِنْ الْمُتَشَابِهِ، بَلْ هُوَ مُؤْمِنٌ بِهِ، قَدْ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَ الْمُتَشَابِهِ.

وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَرْسَخْ فِي ذَلِكَ بَلْ إِذَا عَارَضَهُ الْمُتَشَابِهُ شَكَّ فِيهِ: فَهَذَا يُجَوِّزُ أَنْ يُرَادَ بِالْمُتَشَابِهِ مَا يُنَاقِضُ الْمُحْكَمَ، فَلَا يَعْلَمُ مَعْنَى الْمُتَشَابِهِ، إِذْ لَمْ يَرْسَخْ فِي الْعِلْمِ بِالْمُحْكَمِ، وَهُوَ يَبْتَغِي الْفِتْنَةَ فِي هَذَا وَهَذَا، فَهَذَا يُعَاقَبُ عُقُوبَةً تَرْدَعُهُ كَمَا فَعَلَ عُمَرُ بِصَبِيغٍ، وَأَمَّا مَنْ قَصْدُهُ الْهُدَى وَالْحَقُّ فَلَيْسَ مِنْ هَؤُلَاءِ)).

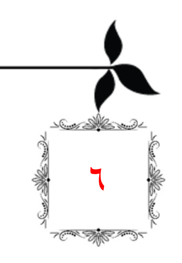
وقال في المجموع (١٤/ ٤٢٨-٤٢٩): ((فَدَلَّ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ مِنْ الصَّحَابَةِ كَانُوا يَعْرِفُونَ مِنْ مَعَانِي كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا لَا يَعْرِفُهُ غَيْرُهُمْ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ مُحْكَمَهُ وَمُتَشَابِهَهُ)).

٤- وقال العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله كما في مفتاح دار السعادة (١/ ١٤٠): ((وقوله: "ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة" هذا لضعف علمه وقلة بصيرته، إذا وردت على قلبه أدنى شبهة قدحت فيه الشك والريب، بخلاف الراسخ في العلم لو وردت عليه من الشبه بعدد أمواج البحر ما أزالت يقينه ولا قدحت فيه شكاً، لأنه قد رسخ في العلم فلا تستفزه الشبهات، بل إذا وردت عليه ردها حرسُ العلمِ وجيشُه مغلولةً مغلوبةً، والشبهة وارد يرد على القلب يحول بينه وبين انكشاف الحق له، فمتى باشر القلب حقيقة العلم لم تؤثر تلك الشبهة فيه، بل يقوى علمه ويقينه بردها ومعرفة بطلانها، ومتى لم يباشر حقيقة العلم بالحق قلبه قدحت فيه الشك بأول وهلة، فإن تداركها وإلا تتابعت على قلبه أمثالها حتى يصير شاكاً مرتاباً.

والقلب يتوارده جيشان من الباطل جيش شهوات الغي، وجيش شبهات الباطل، فأيما قلب صغا إليها وركن اليها تشربها وامتلأ بها فينضح لسانه وجوارحه بموجبها، فإن أُشرب شبهات الباطل تفجَّرت على لسانه الشكوك والشبهات والإيرادات، فيظن الجاهل أنَّ ذلك لسعة علمه، وإنما ذلك من عدم علمه ويقينه.

وقال لي شيخ الاسلام رضي الله عنه وقد جعلت أورد عليه إيراداً بعد إيراد: "لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها،

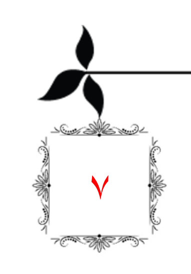




فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته، وإلا فاذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليها صار مقراً للشبهات" أو كما قال، فما أعلم أني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك)).

وقال رحمه الله كما في (طريق الهجرتين ص٥١٦-٥١٧): ((الطبقة الرابعة: ورثة الرسل وخلفاؤهم في أممهم وهم القائمون بما بعثوا به علماً وعملاً ودعوةً للخلق إلى الله على طرقهم ومنهاجهم، وهذه أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة، وهي مرتبة الصديقية، ولهذا قرنهم الله في كتابه بالأنبياء، فقال تعالى: "ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً"، فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة، وهؤلاء هم الربانيون، وهم الراسخون في العلم، وهم الوسائط بين الرسول وأمته، فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه، وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله؛ وهم على ذلك)).

٥- وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٢/ ٤٦٨): ((ثم قال تعالى: "لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ"، أي: الثابتون في الدِّين؛ لهم قدم راسخة في العلم النافع)).




وقال في موضع آخر (٦/ ٢٧٩): ((ثم قال تعالى: "وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ" أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه)).

٦- وقال العلامة الشاطبي رحمه الله كما في الموافقات (٥/ ٢٢٤-٢٣٣):

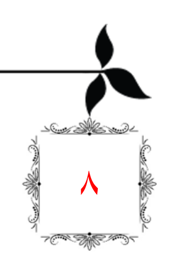
((المسألة الثالثة عشرة:

مرَّ الكلام فيما يفتقر إليه المجتهد من العلوم، وأنه إذا حصلها، فله الاجتهاد بالإطلاق، وبقي النظر في المقدار الذي إذا وصل إليه فيها توجَّه عليه الخطاب بالاجتهاد بما أراه الله، وذلك أنَّ طالب العلم إذا استمرَّ في طلبه مرت عليه أحوال ثلاثة:

أحدها: أن يتنبه عقله إلى النظر فيما حفظ والبحث عن أسبابه، وإنما ينشأ هذا عن شعور بمعنى ما حصل، لكنه مجمل بعد، وربما ظهر له في بعض أطراف المسائل جزئياً لا كلياً، وربما لم يظهر بعد، فهو ينهي البحث نهايته، ومعلِّمه عند ذلك يعينه بما يليق به في تلك الرتبة، ويرفع عنه أوهامًا وإشكالات تعرض له في طريقه، يهديه إلى مواقع إزالتها [ويطارحه] في الجريان على مجراه، مثبتًا قدمه، ورافعًا وحشته، ومؤدبًا له حتى يتسنى له النظر والبحث على الصراط المستقيم.

فهذا الطالب حين بقائه هنا ينازع الموارد الشرعية وتنازعه، ويعارضها وتعارضه، طمعًا في إدراك أصولها والاتصال بحكمها ومقاصدها، ولم تتلخص له بعد، لا يصح منه الاجتهاد فيما هو ناظر فيه؛ لأنه لم يتخلص له مسند





الاجتهاد، ولا هو منه على بينة بحيث ينشرح صدره بما يجتهد فيه، فاللازم له الكف والتقليد.

والثاني: أن ينتهي بالنظر إلى تحقيق معنى ما حصل على حسب ما أداه إليه البرهان الشرعي، بحيث يحصل له اليقين ولا يعارضه شك، بل تصير الشكوك -إذا أوردت عليه- كالبراهين الدالة على صحة ما في يديه، فهو يتعجب من المتشكك في محصوله كما يتعجب من ذي عينين لا يرى ضوء النهار، لكنه استمر به الحال إلى أن زل محفوظه عن حفظه حكمًا، وإن كان موجوداً عنده، فلا يبالي في القطع على المسائل، أنص عليها؟ أو على خلافها؟ أم لا؟.

فإذا حصل الطالب على هذه المرتبة، فهل يصح منه الاجتهاد في الأحكام الشرعية أم لا؟ هذا محل نظر والتباس، ومما يقع فيه الخلاف.

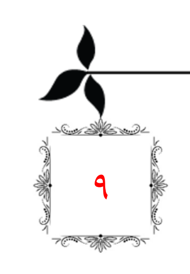
[ثم ذكر مآخذ المجوزين والمانعين] ثم قال:

وإذا تقرر أنَّ لكل احتمال مأخذًا، كانت المسألة بحسب النظر الحقيقي فيها باقية الإشكال.

ومن أمثلة هذه المرتبة مذهب من نفى القياس جملة وأخذ بالنصوص على الإطلاق، ومذهب من أعمل القياس على الإطلاق ولم يعتبر ما خالفه من الأخبار جملة...، ثم قال:

و[الحال] الثالث: أن يخوض فيما خاض فيه الطرفان، ويتحقق بالمعاني الشرعية مُنزَّلة على الخصوصيات الفرعية، بحيث لا يصده التبحر في الاستبصار





بطرف عن التبحر في الاستبصار بالطرف الآخر، فلا هو يجري على عموم واحد منهما دون أن يعرضه على الآخر، ثم يلتفت مع ذلك إلى تنزل ما تلخص له على ما يليق في أفعال المكلفين، فهو في الحقيقة راجع إلى الرتبة التي ترقَّى منها، لكن بعلم المقصود الشرعي في كل جزئي فيها عمومًا وخصوصًا، وهذه الرتبة لا خلاف في صحة الاجتهاد من صاحبها.

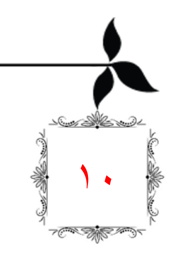
وحاصله: أنه متمكِّن فيها، حاكم لها، غير مقهور فيها، بخلاف ما قبلها، فإنَّ صاحبها محكوم عليه فيها، ولذلك قد تستفزه معانيها الكلية عن الالتفات إلى الخصوصيات، وكل رتبة حكمت على صاحبها دلت على عدم رسوخه فيها.

وإن كانت محكومًا عليها، تحت نظره وقهره، فهو صاحب التمكين والرسوخ، فهو الذي يستحق الانتصاب للاجتهاد، والتعرض للاستنباط.

وكثيرًا ما يختلط أهل الرتبة الوسطى بأهل هذه الرتبة، فيقع النزاع في الاستحقاق أو عدمه، والله أعلم.

ويسمى صاحب هذه المرتبة: الرباني، والحكيم، والراسخ في العلم، والعالم، والفقيه، والعاقل؛ لأنه يربي بصغار العلم قبل كباره، ويوفِّي كل أحد حقه حسبما يليق به، وقد تحقق بالعلم وصار له كالوصف المجبول عليه، وفهم عن الله مراده [من شريعته].





ومن خاصيته أمران:

أحدهما: أنه يجيب السائل على ما يليق [به] في حالته على الخصوص إن كان له في المسألة حكم خاص، بخلاف صاحب الرتبة الثانية، فإنه إنما يجيب من رأس الكلية من غير اعتبار بخاص.

والثاني: أنه ناظر في المآلات قبل الجواب عن السؤالات، وصاحب الثانية لا ينظر في ذلك، ولا يبالي بالمآل إذا ورد عليه أمر أو نهي أو غيرهما، وكان في مساقه كليًا، ولهذا الموضع أمثلة كثيرة تقدم منها جملة من مسألة الاستحسان ومسألة اعتبار المآل، وفي مذهب مالك من ذلك كثير)).

وقال رحمه الله كما في الاعتصام (٢/ ٧٣٨): ((فَكُلُّ أَحَدٍ؛ عَالِمٌ بِنَفْسِهِ: هَلْ بَلَغَ فِي الْعِلْمِ مَبْلَغَ الْمُفْتِينَ أَمْ لَا؟

وَعَالِمٌ [إِذَا] رَاجَعَ النَّظَرَ فِيمَا سُئِلَ عَنْهُ: هَلْ هُوَ قَائِلٌ بِعِلْمٍ وَاضِحٍ مِنْ غَيْرِ إِشْكَالٍ أَمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ؟ أَمْ هُوَ عَلَى شَكٍّ فِيهِ؟.

وَالْعَالِمُ إِذَا لَمْ يَشْهَدْ لَهُ الْعُلَمَاءُ فَهُوَ فِي الْحُكْمِ بَاقٍ عَلَى الْأَصْلِ مِنْ عَدَمِ الْعِلْمِ حَتَّى يَشْهَدَ فِيهِ غَيْرُهُ وَيَعْلَمَ هُوَ مِنْ نَفْسِهِ مَا شَهِدَ لَهُ بِهِ، وَإِلَّا فَهُوَ عَلَى يَقِينٍ مِنْ عَدَمِ الْعِلْمِ أَوْ عَلَى شَكٍّ.

فَاخْتِيَارُ الْإِقْدَامِ فِي هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ عَلَى الْإِحْجَامِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِاتِّبَاعِ الْهَوَى، إِذْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَسْتَفْتِيَ فِي نَفْسِهِ غَيْرَهُ وَلَمْ يَفْعَلْ، وَكَانَ مِنْ حَقِّهِ أَنْ لَا يُقَدَّمَ إِلَّا أَنْ يُقَدِّمَهُ غَيْرُهُ، وَلَمْ يَفْعَلْ هَذَا.

قَالَ الْعُقَلَاءُ: رَأْيُ الْمُسْتَشَارِ أَنْفَعُ، لِأَنَّهُ بَرِيءٌ مِنَ الْهَوَى، بِخِلَافِ مَنْ لَمْ يُسْتَشَرْ فَإِنَّهُ غَيْرُ بَرِيءٍ، وَلَاسِيَّمَا فِي الدُّخُولِ فِي الْمَنَاصِبِ الْعَلِيَّةِ وَالرُّتَبِ الشَّرْعِيَّةِ كَرُتَبِ الْعِلْمِ.

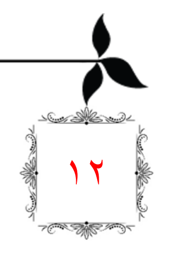
فَهَذَا أُنْمُوذَجٌ يُنَبِّهُ صَاحِبَ الْهَوَى فِي هَوَاهُ وَيَضْبِطُهُ إِلَى أَصْلٍ يَعْرِفُ بِهِ؛ هَلْ هُوَ فِي تَصَدُّرِهِ إِلَى فَتْوَى النَّاسِ مُتَّبِعٌ لِلْهَوَى، أَمْ هُوَ مُتَّبِعٌ لِلشَّرْعِ؟.

وَأَمَّا الْخَاصِّيَّةُ الثَّانِيَةُ فَرَاجِعَةٌ إِلَى الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ؛ لِأَنَّ مَعْرِفَةَ الْمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ رَاجِعٌ إِلَيْهِمْ يَعْرِفُونَهَا وَيَعْرِفُونَ أَهْلَهَا، فَهُمُ الْمَرْجُوعُ إِلَيْهِمْ فِي بَيَانِ مَنْ هُوَ مُتَّبِعٌ لِلْمُحْكَمِ فَيُقَلَّدُ فِي الدِّينِ، وَمَنْ هُوَ الْمُتَّبِعُ لِلْمُتَشَابِهِ فَلَا يُقَلَّدُ أَصْلًا)).

وقال (١/ ٢٨٢-٢٨٣): ((بَلْ كُلُّ مُبْتَدِعٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ: إِمَّا أَنْ يَدَّعِيَ أَنَّهُ هُوَ صَاحِبُ السُّنَّةِ دُونَ مَنْ خَالَفَهُ مِنَ الْفِرَقِ، فَلَا يُمْكِنُهُ الرُّجُوعُ إِلَى التَّعَلُّقِ بِشُبَهِهَا، وَإِذَا رَجَعَ إِلَيْهَا؛ كَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَ الِاسْتِدْلَالَ مَأْخَذَ أَهْلِهِ الْعَارِفِينَ بِكَلَامِ الْعَرَبِ وَكُلِّيَّاتِ الشَّرِيعَةِ وَمَقَاصِدِهَا؛ كَمَا كَانَ السَّلَفُ الْأَوَّلُ يَأْخُذُونَهَا.

إِلَّا أَنَّ هَؤُلَاءِ -كَمَا يَتَبَيَّنُ بَعْدُ- لَمْ يَبْلُغُوا مَبْلَغَ النَّاظِرِينَ فِيهَا بِإِطْلَاقٍ: إِمَّا لِعَدَمِ الرُّسُوخِ فِي مَعْرِفَةِ كَلَامِ الْعَرَبِ وَالْعِلْمِ بِمَقَاصِدِهَا، وَإِمَّا لِعَدَمِ الرُّسُوخِ فِي الْعِلْمِ بِقَوَاعِدِ الْأُصُولِ الَّتِي مِنْ جِهَتِهَا تُسْتَنْبَطُ الْأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ، وَإِمَّا لِعَدَمِ





الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا، فَبِالْحَرِيِّ أَنْ تَصِيرَ مَآخِذُهُمْ لِلْأَدِلَّةِ مُخَالَفَةً لِمَأْخَذِ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ لِلْأَمْرَيْنِ...، ثم قال:

وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ شَمَلَتْ قِسْمَيْنِ هُمَا أَصْلُ الْمَشْيِ عَلَى طَرِيقِ الصَّوَابِ أَوْ عَلَى طَرِيقِ الْخَطَأِ:

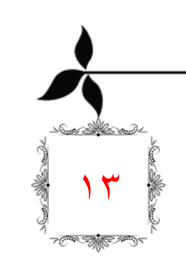
أَحَدُهُمَا: الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، وَهُمُ الثَّابِتُو الْأَقْدَامِ فِي عِلْمِ الشَّرِيعَةِ، وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ مُتَعَذِّرًا إِلَّا عَلَى مَنْ حَصَّلَ الْأَمْرَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ؛ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِهِمَا مَعًا عَلَى حَسَبِ مَا تُعْطِيهِ الْمُنَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ، وَإِذْ ذَاكَ يُطْلَقُ عَلَيْهِ "أَنَّهُ رَاسِخٌ فِي الْعِلْمِ"، وَمُقْتَضَى الْآيَةُ مَدْحُهُ، فَهُوَ إِذًا أَهْلٌ لِلْهِدَايَةِ وَالِاسْتِنْبَاطِ...

وَالْقِسْمُ الثَّانِي: مَنْ لَيْسَ بِرَاسِخٍ فِي الْعِلْمِ؛ وَهُوَ الزَّائِغُ...)).

وقال (٢/ ٨٠١-٨٠٢): ((قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْبِدَعَ لَا تَقَعُ مِنْ رَاسِخٍ فِي الْعِلْمِ، وَإِنَّمَا تَقَعُ مِمَّنْ لَمْ يَبْلُغْ مَبْلَغَ أَهْلِ الشَّرِيعَةِ الْمُتَصَرِّفِينَ فِي أَدِلَّتِهَا.

وَالشَّهَادَةُ بِأَنَّ فُلَانًا رَاسِخٌ فِي الْعِلْمِ وَفُلَانًا غَيْرُ رَاسِخٍ فِي غَايَةِ الصُّعُوبَةِ، فَإِنَّ كُلَّ مَنْ خَالَفَ وَانْحَازَ إِلَى فِرْقَةٍ يَزْعُمُ أَنَّهُ الرَّاسِخُ وَغَيْرُ قَاصِرِ النَّظَرِ، فَإِنْ فُرِضَ عَلَى ذَلِكَ الْمَطْلَبِ عَلَامَةٌ، وَقَعَ النِّزَاعُ إِمَّا فِي الْعَلَامَةِ، وَإِمَّا فِي مَنَاطِهَا... إلى أن قال:





وَمِنَ الْعَلَامَاتِ:

اتِّبَاعُ مَا تَشَابَهَ مِنَ الْأَدِلَّةِ، وَكُلُّ طَائِفَةٍ تَرْمِي صَاحِبَتَهَا بِذَلِكَ، وَأَنَّهَا هِيَ الَّتِي اتَّبَعَتْ أُمَّ الْكِتَابِ دُونَ الْأُخْرَى، فَتَجْعَلُ دَلِيلَهَا عُمْدَةً وَتَرُدُّ إِلَيْهِ سَائِرَ الْمَوَاضِعِ بِالتَّأْوِيلِ، عَلَى عَكْسِ الْأُخْرَى.

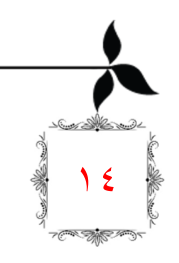
وَمِنْهَا اتِّبَاعُ الْهَوَى، الَّذِي تَرْمِي بِهِ كُلُّ فِرْقَةٍ صَاحِبَتَهَا وَتُبَرِّئُ نَفْسَهَا مِنْهُ.

فَلَا يُمْكِنُ فِي الظَّاهِرِ مَعَ هَذَا أَنْ يَتَّفِقُوا عَلَى مَنَاطِ هَذِهِ الْعَلَامَاتِ، وَإِذَا لَمْ يَتَّفِقُوا عَلَيْهَا لَمْ يُمْكِنْ ضَبْطُهُمْ بِهَا بِحَيْثُ يُشِيرُ إِلَيْهِمْ بِتِلْكَ الْعَلَامَاتِ، وَأَنَّهُمْ فِي التَّحْصِيلِ مُتَّفِقُونَ عَلَيْهَا، وَبِذَلِكَ صَارَتْ عَلَامَاتٌ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ مَعَ اخْتِلَافِهِمْ فِي الْمَنَاطِ الضَّبْطُ بِالْعَلَامَاتِ؟!)).

وقال (٢/ ٧٣٩): ((فَجَعَلَ مِنْ شَأْنِ الْمُتَّبِعِ لِلْمُتَشَابِهِ: أَنَّهُ يُجَادِلُ فِيهِ وَيُقِيمُ النِّزَاعَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَسَبَبُ ذَلِكَ: أَنَّ الزَّائِغَ الْمُتَّبِعَ لِمَا تَشَابَهَ مِنَ الدَّلِيلِ لَا يَزَالُ فِي رَيْبٍ وَشَكٍّ، إِذِ الْمُتَشَابِهُ لَا يُعْطَى بَيَانًا شَافِيًا، وَلَا يَقِفُ مِنْهُ مُتَّبِعُهُ عَلَى حَقِيقَةٍ، فَاتِّبَاعُ الْهَوَى يُلْجِئُهُ إِلَى التَّمَسُّكِ بِهِ، وَالنَّظَرُ فِيهِ لَا يَتَخَلَّصُ لَهُ، فَهُوَ عَلَى شَكٍّ أَبَدًا، وَبِذَلِكَ يُفَارِقُ الرَّاسِخَ فِي الْعِلْمِ؛ لِأَنَّ جِدَالَهُ إِنِ افْتَقَرَ إِلَيْهِ فَهُوَ فِي مَوَاقِعِ الْإِشْكَالِ الْعَارِضِ طَلَبًا لِإِزَالَتِهِ، فَسُرْعَانَ مَا يَزُولُ إِذَا بَيَّنَ لَهُ مَوْضِعَ النَّظَرِ.

وَأَمَّا ذُو الزَّيْغِ فَإِنَّ هَوَاهُ لَا يُخَلِّيهِ إِلَى طَرْحِ الْمُتَشَابِهِ، فَلَا يَزَالُ فِي جِدَالٍ عَلَيْهِ وَطَلَبٍ لِتَأْوِيلِهِ)).





٧- وقال العلامة السعدي رحمه الله كما في تفسيره ص١٣٢: ((وقد أثنى الله تعالى على الراسخين في العلم بسبع صفات؛ هي عنوان سعادة العبد:

إحداها: العلم الذي هو الطريق الموصل إلى الله المبين لأحكامه وشرائعه.

الثانية: الرسوخ في العلم؛ وهذا قدر زائد على مجرد العلم.

فإنَّ الراسخ في العلم يقتضي أن يكون عالماً محققاً، وعارفاً مدققاً، قد علَّمه الله ظاهر العلم وباطنه، فرسخ قدمه في أسرار الشريعة علماً وحالاً وعملاً.

الثالثة: أنه وصفهم بالإيمان بجميع كتابه، ورد لمتشابهه إلى محكمه، بقوله: "يقولون آمنا به كل من عند ربنا".

الرابعة: أنهم سألوا الله العفو والعافية مما ابتلي به الزائغون المنحرفون.

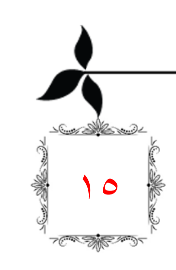
الخامسة: اعترافهم بمنة الله عليهم بالهداية؛ وذلك قوله: "ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا".

السادسة: أنهم مع هذا سألوه رحمته المتضمنة حصول كل خير واندفاع كل شر، وتوسلوا إليه باسمه الوهاب.

السابعة: أنه أخبر عن إيمانهم وإيقانهم بيوم القيامة وخوفهم منه، وهذا هو الموجب للعمل الرادع عن الزلل)).

٨- وسُئلت اللجنة الدائمة برئاسة سماحة العلامة الشيخ ابن باز رحمه الله كما في فتوى رقم (١١٦٢٧): وما المقصود بالراسخين في العلم؟



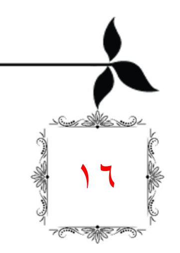


فكان جوابهم: ((وأنَّ الراسخين في العلم: هم الذين يبتغون الحق؛ فيرجعون بالمتشابه من الآيات إلى الآيات المحكمات، تحكيماً لها؛ فيزول الالتباس فيما تشابه من الآيات بالمعنى الخاص ويتعين المقصود منها، بخلاف من في قلوبهم شك وزيغ فهم الذين يركبون رؤوسهم ويتبعون أهواءهم، فيقصدون إلى المتشابه من النصوص دون رجوع به إلى المحكم؛ ابتغاء الفتنة، ورغبة في التلبيس على الناس وإضلالهم عن سواء السبيل)).

٩- وقال العلامة الشيخ ابن عثيمين رحمه الله كما في اللقاء الشهري في تفسير قوله تعالى: "إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ": ((وهكذا كل من في قلبه زيغ يتبع ما تشابه من القرآن والسنة؛ فيضرب بعضه ببعض، ولكن يقيض الله عز وجل لدينه من يحفظه ويدفع هذه الشبهات ويبين الحق فيها، فمن هؤلاء؟ هؤلاء هم الراسخون في العلم)).

١٠- وقال العلامة الشيخ صالح الفوزان حفظه الله كما في التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية ص٧٣: ((الراسخون يعني: الثابتين في العلم، الذين عندهم علم راسخ، وليس عندهم شكوك ولا جهل، فهم يؤمنون بالقضاء والقدر ويعملون الأعمال الصالحة ويتركون الأعمال السيئة ولا يتدخلون مع الله في سر من أسراره، ولا يناقشونه ويعترضون عليه، هذا شأن الراسخين في العلم، وأما الجهَّال فيدخلون في ضلالات وأمور ابتدعوها)).





وأخيراً:

فهؤلاء هم الراسخون في العلم، وهؤلاء هم من يحق لهم الفتيا في النوازل والمسائل الكبار دون غيرهم من المشايخ وطلبة العلم فضلاً عن المتعالمين والمبطلين من أهل الأهواء والبدع.

ومثال هذه المسائل الكبار: مسألة تعيين نوع القتال.

فقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنواع القتال (قتال المرتدين، وقتال الخوارج المارقين، وقتال البغاة المعتدين، وقتال الفتنة بين المسلمين) وما قد يحصل من اشتباه في إلحاق القتال في زمن من الأزمان إلى أي نوع من هذه الأنواع، ثم قال بعدها كما في (المنهاج ٤/ ٢٩٥): ((وفي الجملة: فالبحث في هذه الدقائق من وظيفة خواص أهل العلم)).

وهؤلاء الخواص هم من قال فيهم نبينا صلى الله عليه وسلم: ((الْبَرَكَةُ مَعَ أَكَابِرِكُمْ)) كما أخرجه الحاكم وابن حبان والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان "بَابٌ فِي رَحِمِ الصَّغِيرِ وَتَوْقِيرِ الْكَبِيرِ" عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وحسنه الألباني.

وقال فيهم ابن مسعود رضي الله عنه: ((لا يزال الناس صالحين متماسكين ما أتاهم العلمُ من أصحاب محمد ومن أكابرهم، فإذا أتاهم من أصاغرهم هلكوا)) [جامع بيان العلم وفضله: ١٠٥٩]




وذكره الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (٢/ ٣٧٣) ثم ذكر بعده لفظاً آخر: ((لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم وعن أمنائهم وعلمائهم، فإذا أخذوه من صغارهم وشرارهم هلكوا))، ثم ذكر بعده عن الإمام ابْنِ قُتَيْبَةَ الدِّيْنَوَرِيُّ رحمه الله أنه قال: ((يريد: لا يزال الناس بخير ما كان علماؤهم المشايخ، ولم يكن علماؤهم الأحداث، لأنَّ الشيخ قد زالت عنه ميعة الشباب وحدته وعجلته وسفهه، واستصحب التجربة والخبرة، فلا يدخل عليه في علمه الشبهة، ولا يغلب عليه الهوى، ولا يميل به الطمع، ولا يستزله الشيطان استزلال الحدث، ومع السن الوقار والجلالة والهيبة، والحدث قد يدخل عليه هذه الأمور التي أمنت على الشيخ، فإذا دخلت عليه وأفتى هلك وأهلك)).

وأختم بما قاله الإمام الشافعي رحمه الله كما في (رسالته ص٤١): ((وقد تكلَّم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلَّم فيه منه لكان الإمساك أولى به، وأقرب من السلامة له إن شاء الله)).

والله الموفِّق.

كتبه

أبو معاذ رائد آل طاهر

الجمعة ١١ من ربيع الأول لعام ١٤٣٦ هـ